العدد(1443) السنة السادسة - الخميس (26) شباط 2009 ◆ http://www.almadapaper.com - E-mail: almada@almadapaper.com

مؤسسا الادب التركي الحديث

تجديدات في عالم الثقافة والنهضة الادبية

اذا كان الدارسون الغربيون قد نسبوا فضل تأسيس الادب الافريقي الى هوميروس ، فان المؤرخين الترك يجمعون على ان الكاتب الشاعرشناسي هو ابو الادب التركي الحديث ، واليه قبل غيره ، من ادباء عصر النهضة يعود فضل تأسيس الادب الحديث في البلاد التركية. فلقد ولد في عشرينيات القرن التاسع عشر أي انه سبق عصر الاصلاح " التنظيمات التي اعلنت سنة ١٨٣٩ " واطلق عليها اسم : خطي همايوني شريف" فتهيأ له من الفرص لفهم هذه الحركة واستيعابها مالم يتهيأ للكثيرين من ادباء النهضة ، الذين لم يعرفوا عهود الانحطاط المظلمة الي كانت السمة الاساسية للدولة العثمانية عبر القرنين اللذين سبقا " التنظيمات " اذ ولد اغلبهم بعد التنظيمات واصلاحاتها وليس قبلها ومن هنا يمكن فهم اهمية تجديدات وابداعاته في عالم الثقافة والنهضة الادبية ولد شناسي في استانبول سنة ١٨٢٦ قدم ابوه الى العاصمة من بلدة بولو التركية.

(1-1)

احسان الملائكة
بغداد

شناسي ١٨٢٦ -١٨٧١

حين شبت نيران الحرب التركية الروسية وقع والده الملازم اول محمد اغا اسيرا في ايدي الروس في سنة ١٨٢٧ قبل ان يتجاوز الطفل سنته الاولى من العمر ، فكان على والدته ان تقوم وحدها بالاشراف على تربيته. بعد اتمام دراسته الاولى عين موظفاً في مصنع عسكري باستانبول وفي سنة ١٨٤٩ اوفدته وزارة المالية الى باريس لدراسة علم الاقتصاد.

في باريس انعقدت اواصر الصداقة بينه وبين عدد من مشاهير ادبائها مثل لامارتين كما تعرف الى كثير من المستشرقين وفيهم دى سياسي وغيره، وفي سنة ١٨٥٣ اكمل دراسته وعاد الى استانبول. حيث لفت انتباه الصدر الاعظم مصطفى رشيد باشا بطل التنظيمات الخيرية ، فبسط عليه حمايته ، وتم انتخابه عضوا في مجلس المعارف في سنة ١٨٥٥.

منذ عام ١٨٦٠ اشترك مع الكاتب اغا فندي في اصدار جريدة " ترجماني احوال" وهي اول صحيفة اهلية تصدر باللغة التركية. لكنه ترك العمل فيها بعد صدور اربعة وعشرين عددا منها وفي عام ١٨٦٥ اصدر وحده جريدة " تصويري افكار" التي عهد بتحريرها بعد ذلك الى صديقه الشاعر نامق كمال ، كي يسافر هو الى باريس مرة اخرى. عاد شناسي من باريس في سنة ١٧٦٩ ليعمل في الحقل الصحفي من جديد. ظهر عليه بعد ذلك علامات مرض خطير اذ اصيب بورم في الدماغ اودى بحياته في سنة ١٨٧١ قبل ان يبلغ السادسة والاربعين من العمر.

استفاد شناسي من فرصة وجوده في باريس اثناء دراسته للاقتصاد كي يطلع على الحركات و التيارات الفكرية و الثقافية والاحوال الفنية والادبية في فرنسا خصوصا واوروبا على العموم. وكان لتلك الاجواء تاثير عميق في نفسه . في هذا المقام لابد للمرء ان يتذكر ما وقع للكاتب العربي المسرحي توفيق الحكيم ، الذي رحل الى باريس لدراسة القانون فلم يشغله ذلك عن الغوص في عوالم الادب و الفن ، وكن في ذلك الخير كله للمسرح العربي الذي رفعه توفيق الحكيم الى مستوى لن يبلغه على يد غيره.

حين عاد شناسي الى وطنه شرع بترجمة الادب الفرنسي الى التركية فكان له فضل الريادة في هذا الميدان وممن ترجم عنهم الشاعر لامارتين والمسرحي راسين و القصصي لافونتين الخ ثم انه الف اول مسرحية تركية وكانت بعنوان : زواج الشاعر عدا عن ذلك كان اول من كتب جنس المقالة الادبية الحديثة بالتركية واول من ادخل علامات التنقيط في الكتابة ، ولا نهاية في الواقع لمسلسل اولوياته . كان ادبيا ذا حيوية فكرية هائلة لكن وفاة الصدر الاعظم مصطفى رشيد باشا، المعجب مثله بالحضارة الغربية سنة ١٨٥٧ حطمت امال شناسي وحرمته من الحامي القوي الذي كان يقدر مواهبه حق قدرها ، فلقد تمنى ان يحقق لتركيا ما حققه قبله رائد الثقافة الحديثة في مصر . رفاعة الطهطاوي ١٨٠١-١٨٧٣ الذي بسط عليه محمد علي باشا رعايته الكاملة فاستطاع ان يقدم لابناء مصر مئات المؤلفات المفيدة ، وعلى يديه تخرجت مدرسة كاملة من خيرة علماء مصر وادبائها . لكن امال شناسي تحطمت فقد وجد ان مجرد ترديده لبعض الاراء الاقتصادية العلمية التي درسها في جامعات فرنسا صارت تجر عليه مشاكل لا طاقة له بحملها ، ومن ثم انصرف عن الفكر العلمي الى الكتابة الادبية والعمل الصحفي.

ابدع شناسي نثرا يقوم على الجملة القصيرة والفكرة العارية والاراء الحديثة، والبناء المنسوج نسجاً محكماً . وكان النثر العثماني السائد يؤمئذ قائماً على حشو الجمل بالزخارف اللفظية حتى يفقد الكلام مضمونه المقصود، في حين كان الهدف الاول لشناسي من الكتابة ، ايصال مقاصده الى الكتل الجماهيرية الواسعة لذلك لم يهتم بفخامة الاسلوب او القدرات البلاغية وانما كان همه توضيح افكاره بأقصر الجمل . ومن اهم اقواله في هذا الميدان " لايمكن للانسان ان يعيش في عالم متقدم بأدوات حضارة متهرئة فات اوانها " وكان على علم بأن اسرع طريق لنهضة المجتمع هو الصحافة لذلك كان هو اول من اصدر صحيفة اهلية في تركية.

كتب شناسي في الاجناس الادبية التالية " الشعر . الترجمة . الحكاية . النقد . المقالة . المسرحية . وانهمك في عمل قاموس مهم وكتب الشعر الشعبي . من مؤلفاته : مختارات شعرية ، ضرب الامثال التركية . حكايات شعرية عن الحيوان ، مقالات كثيرة نشرها في جريدة " تصويري افكار" ثم نشرها في ثلاثة اجزاء.

لم ينزع شناسي نزعة رومانتيكية في ادبه فهو في هذا يعكس صديقه نامق كمال ، اذ كان شناسي مع نظرية : الفن للشعب" وضد نظرية الفن للفن ، في حين تجسدت رومانتيكية نامق كمال في مثالية ابطال مسرحياته .

في سنة ١٨٦٥ تأسست جمعية " العثمانيون الشباب او جون توركلر" فانضم الى اعضائها شناسي وكان منهم نامق كمال وضياء باشا ومدحت باشا، مصطفى فاضل باشا شقيق الخديوي اسماعيل ، لكن لهذا الموضوع حديثاً اخر.

رائد الأدب التركي الحديث نامق كمال ١٨٤٠-١٨٨٨

" ذلك الذي علم جيلنا الحاضر كيف يخوض غمار الموت من أجل ان يحيا الوطن "

مصطفى كمال

ينسب الدارسون الاتراك الى الاديبين شناسي ونامق كمال لفضل تأسيس الادب التركي الحديث اذ كانا الرائدين الموهوبين اللذين نفخا الروح العصرية في جسد ذلك الادب وخلصاه من القوالب المبهرجة الجامدة والافكار التقليدية الميتة ، فأصبح يعكس هموم الناس ويصور وقائع حياتهم اليومية ويستثير في نفوس القراء والمستمعين ذات الافكار والمشاعر التي يقصدها المبدع او المؤلف ، فاستطاع بذلك ان يجسد هوية الانسان التركي وينتمي بصدق الى ارض الوطن . فلا عجب ان يجتاح الادب الحديث، الساحة كلها ويلقي بالانتاجات الممثلة لعهود الانحطاط في سلة المهملات دون تردد او اسف على ان نامق كمال اختص ، دون غيره من ادباء عهد التنظيمات ، يفيض مشاعره الوطنية الملتهبة التي عرف كيف يوصلها الى قلوب مواطنيه، واستطاع عن طريق اثاره الادبية ، ان يسيطر على الشارع التركي ، اثناء حكم السلطان عبد العزيز ، لانه كان يمثل بحق وجد ان الشعب وينطق بلسانه ، مما ادى الى ان يقضي الشاعر اغلب سنوات حياته في المنافي والمهاجر والسجون.

ولو بحثنا عن نظير لنامق كمال في الاداب العالمية فربما استطعنا مقارنته بالشاعر فرجيل ، ابي الملحمة الرومانية ، ومع ان الشاعر التركي لم يؤلف اية ملحمة ، الا انه كتب مسرحية " الوطن او قلعة سيلستر " التي خلدت انتصار الترك على الروس في احدى اعظم معاركهم التي يفخرون بها حتى اليوم . وبفضل نجاح هذه المسرحية واعتماداً على اجواء الحماس التي استثارتها في قلوب المواطنين ، استطاع اعضاء جمعية " العثمانيون الجدد" ، التي كان نامق كمال احد اهم مؤسسيها ، ان يخلعوا السلطان عبد العزيز وينصبو ولي عهده مكانه .

الاسرة

ينتمي نامق كمال الى عائلة تركية عريقة تعود صلتها الوثيقة بالسلطة العثمانية الحاكمة الى قرن ونصف من الزمان . ففي عهد السلطان محمود الاول: ١٧٣٠-١٧٥٤" اصبح جد نامق كمال ، عثمان باشا صدرا اعظم " رئيس وزراء " ثم انه قتل في احدى حروب السلطان احمد الثالث الذي خلف محمود الاول . ومن رجال العائلة البارزين ايضا الشاعر احمد راتب باش الذي كان من المقربين الى السلطان المجدد سليم الثالث. وتطول القائمة لو قصدنا التفصيل، لكننا نكتفي بالاشارة الى والد الشاعر: عاصم بيك كان يشغل وظيفة رئيس المنجمين في السراي .

توفيت والدة نامق كمال ، السيدة فاطمة زهراء بعد مولد ابنها بسنتين وتركته يتيماً فاحتضنته اسرة جده لأمه: عبد اللطيف باشا ، متصرف مدينة قارص الذي نقل بعد ذلك الى مدينة صوفيا متصرفا لها . هناك اكمل نامق كمال دراسته الاولى. وحين عاد الى استانبول وهو في السابعة عشرة من عمره كان قد تعلم الفرنسية وتفتحت مواهبه الشعرية وكتب عدداً من القصائد الحسنة المبشرة بمستقبل شعري باهر.

في هذه السن المبكر تزوج ، نزولاً عند رغبة اهله ، بنسيمة هانم التي لم يكن يشعر نحوها بأي ميل خاصة لأنها أمية لا تقرأ ولا تكتب . في سنة ١٨٦٤ وضعت بنتهما " خديجة الغريدة" وبعد ثلاث سنوات قدم ابنهما " علي اكرم " الذي سيكون في قابل الأيام اديباً معروفاً .

بقي عاصم بيك على قيد الحياة بعد وفاة ابنه نامق كمال ، مدة اثنتي عشرة سنة انصرف فيها انصرافاً تاماً الى اعمال التنجيم و التنبؤ بأحداث المستقبل . وحين توفي في عام ١٩٠٠ كان قد قارب الخامسة و الثمانين من العمر. من تنبؤاته التي تحققت : انه أنذر عائلته بقرب وقوع كارثة فيها . وبعد شهر واحد توفي ابنه نامق كمال بمرض ذات الرئة سنة ١٨٨٨ وهو في جزيرة ساكيز sakoz التي كان متصرفاً فيها . ونقل جثمانه الى استانبول حيث دفن فيها .

عرف عن عاصم بيك الميل الى المرح و الولع بالخمور ولم يتحرج من مشاركة ابنه في مجالس الشراب، كان ايضاً مولعاً باطلاق النكات والاصغاء اليها. واشتهر عنه صفاء القلب و التسامح حتى انه لم يغضب من وقوف نامق كمال في صف المعارضة ضد السراي ، ولا اظهر انزعاجاً من فراره الى اوروبا وعمله هناك مع اعداء السلطة العثمانية من اعضاء جمعية " العثمانيون الجدد"، بل انه تحمل مسؤولية الاشراف على شؤون اسرة ابنه اثناء غيابه الطويل ، مما كان مدعاة لراحة بال نامق كمال في المهجر او في المنفى ، وكان المفروض ان يخاصم ابنه على مواقفه السلبية تجاه الحكومة، بالنظر للموقع المهم الذي يشغله كلاهما في وظائف الدولة ، لكن عاصم بيك مع كل ذلك صبر عل سلوك ابنه، محاولاً تفهم دوافعه النبيلة ، على الرغم مما قد تجره تلك التصرفات من اضرار بمصالحهما المادية. يرجع بعض الدارسين تسامح عاصم بيك الى انتمائه الى الطريقة البكتاشية المعروفة بنزعة التسامح والعناية بالسايكولوجي الانساني بشكل خاص.

هناك نقطة ضعف واحدة، تضاف الى شغفه بالخمرة ، كانت من سمات شخصية عاصم بيك ، تلك هي ولعه بالنياشين كان همه الابدي ، اللهاث خلف الاوسمة والرتب ، يسعى للحصول عليهما في كل مناسبة ، على ان ذلك كان تجاهاً عاماً وشائعاً بين موظفي الدولة العثمانية ، وهو لم يشذ عنهم . فيما عدا ذلك ظل عاصم بيك محافظاً على حيويته وعافيته حتى النهاية .

كان نامق كمال يعتمد على والده اعتماداً كبيراً ، ويعده صديقا له اضافة الى ابوته والرسائل المتبادلة بينهما خير دليل على ذلك ، على ان اكثر رسائل الشاعر العائلية كانت موجهة الى ابنته فريدة ، بل انه لم ينقطع عن مبادلتها الرسائل حتى في ايام مرضه الاخيرة ، وكان يرد على رسائلها فور وصولها، ويحرص على اسداء النصائح الابوية لها في كل شؤون الحياة . وانتقل حبه لها الى زوجها رفعت بيك ، فكان يبادر بالرد على رسائله ويكتب اليه بحررة ومحبة . ولم يكن ينسى ابداً تقديم التهاني اليهما كلما وضعت فريدة طفلاً ، ويلبث بعد ذلك يراسلها متسائلاً عن احوالها واحوال طفلها بشفقة وحنان شديدين . كذلك واصل نامق كمال الاهتمام بابنه علي اكرم ولم يهمل يوما العناية بدراسته والتفكير بمستقبله ورسائله الكثيرة توضح ذلك كله .

حين كان " رفعت منملي زاده" يقوم بمهام وظيفة الدفتر دار في الشام ، اعتلت زوجته " فريدة" التي كانت دائما ضعيفة الصحة ، فبدأ يطالب المسؤولين بنقله الى مدينة اخرى يلائم جوها حاله زوجته المصابة بالتدرن الرئوي ، ولما لم يجد استجابة قدم استقالته واصطحب اسرته عائداً الى استانبول لكن وضع فريدة ساء بشكل خطير فجأة ، وتوفيت حين بلغوا بيروت سنة ١٨٩٦ ، لم يجد زوجها بدا من دفنها في هذه المدينة . بعد ذلك بسنين اعاد ابنهما الاصغر نعمان تعمير الضريح حين تم تعيينه قنصلاً هناك.

انضمام نامق كمال الى (جمعية العثمانيون الجدد)

في عام ١٨٦١ شكل عارف حكمت حسكلي جمعية الشعراء التي صار اعضاؤها يجتمعون في داره كل يوم ثلاثاء لالقاء اخر انتاجاتهم الادبية ، كان بضمنهم نامق كمال وضياء باشا وكاظم باشا وغيرهم ، واعتاد نامق كمال ان يقوم بتلاوة قصائدهم بنفسه ، وبعد انتهاء الجلسات كانت القصائد تودع لدى صاحب المنزل ، لكن الرقابة حين اشتدت على المطبوعات ، وانقطعت اللقاءات في دار عارف حكمت ، تعرضت قصائد نامق كمال قبل غيرها للاحراق ، خشية ملاحقة السلطات لمن يحتفظ بها. في تلك الفترة تعرف نامق كمال بالشاعر شناسي الذي كان يصدر جريدة ((تصويري افكار)) ففتح له صفحات الجريدة لتشر قصائده. وفي تلك السنة عينها ،أي ١٨٦٥ رحل شناسي الى باريس فعهد بتحرير جريدته الى نامق كمال . لكن هذه الجريدة اصبحت مصدر اقلاق للحكومة العثمانية بسبب أسلوبها النقدي الذي كان يمكن ان يفتح عيون الناس الى مدى الدمار الذي سببته سياسة عبد العزيز الهوجاء ، فصدر الامر باغلاقها. في الوقت ذاته انهمك نامق كمال بترجمة كتاب " تاريخ روما" للمفكر الفرنسي مونتيسكيو . من الاحداث المهمة التي وقعت لنامق كمال في هذه الفترة تعرفه بالوزير الكبير . فؤاد باشا ، وبغيره من كبار الشخصيات .

يقول العلم الحديث انك اذا حركت يدك أصغر حركة وصل صداها إلى أقصى أرجاء العالم. تنطبق هذه المقولة على ما وقع سنة ١٨٦٦ في مصر حين استطاع اسماعيل باشا ، والى مصر ، أن يستحصل موافقة السلطان عبد العزيز ((عن الطريق الهدايا والاموال التي كان يرسلها اليه)) على تحويل العهد الى ابنه توفيق باشا، بعد ان كانت ستنمح الى اكبر راشد في العائلة ، وهو مصطفى فاضل باشا شقيق اسماعيل باشا ، بحسب قوانين الدولة العثمانية فيما يخص ولاية العهد . هذه الحركة التي قد لاتبدو ذات اهمية، غيرت مصير مصطفى فاضل باشا، ومصير السلطان عبد العزيز ومصير الخديوي اسماعيل باشا نفسه، وانعكست تلك التغيرات على مستقبل الحكومة العثمانية كما سنرى ، وعلى علاقاتها بدول العالم من بعد.

كان مصطفى فاضل باشا في ذلك الحين يشغل منصب وزير ذي شأن في حكومة عبد العزيز، وكانت العلاقة بينهما على احسن مايرام ، لكن موافقة عبد العزيز على تغيير نظام ولاية العهد في مصر ، اصابت مصطفى فاضل بضربة قاتلة ، اذ افقدته ، في لحظة واحدة جميع امتيازاته المادية والمعنوية ، فتغير قلبه على عبد العزيز ، وغادر استانبول غاضباً سنة ١٨٦٦ إلى أوروبا. وفي باريس نشر رسالة باللغة الفرنسية وجهها الى عبد العزيز هاجم فيها سياسة حكوماته. فمن المعلوم ان هذا السلطان كان يتأثر اشد التأثر برؤساء الحكومات التي تعمل تحت امرته. وفي تلك المرحلة من حكمه كانت رئاسة الوزارة ((الصدارة العظمى)) يتناوبها علي باشا، فؤاد باشا، وهما من افضل رجال التنظيمات، وقد تدربا على يد الصدر الاعظم بطل التنظيمات الخيرية مصطفى رشيد باشا.

على ان مصطفى فاضل لم يوجه الانتقاد الى السلطان مباشرة بل اكتفى بالقاء اللوم كله على كبار وزرائه من المسؤولين عن سياسة البلاد. وبهذه الوسيلة لم يقطع على نفسه خط الرجعة مما اتاح له فيما بعد استعادة مناصبه في الدولة العثمانية.

كانت الحكومة العثمانية قد اصدرت قانون المطبوعات الجديد وشددت الرقابة على الصحف والمنشورات التي كانت تنشر او تعكس تذمر الناس وسخطهم على اسراف السلطان عبد العزيز وانفاقه الاموال، التي كان يقترضها، من اوروبا ، ويثقل بها الخزانة العامة ، على بناء قصور وعلى مسرات افراد حاشيته . ومما شجع الصحف على تلك المواقف ظهور الاختلاف بين عبد العزيز ووزرائه حول مصروفات السراي، فسرى اللغط بين الناس وشاعت البلبلة ولم يدر في خلد احد ما يخبئه المستقبل للبلاد على يد السلطان الذي سيخلف عبد العزيز.

حاولت الحكومة استرضاء كبار المتنورين والكتاب فصدرت الاوامر بتعيين نامق كمال معاوناً لوالي أرضروم ، وتعيين صاحبه الاديب ضياء باشا متصرفاً لجزيرة قبرص فسافر كل منهما الى مقر عمله الجديد سنة ١٨٦٧. بعد اسابيع وصلت كلاً منهما دعوة من مصطفى فاضل باشا المقيم في اوروبا ، يستقدمهما الى هناك ويعد بالانفاق على معيشتهما ويعينهما على اصدار الصحف الموجهة ضد عبد العزيز. كان مصطفى باشا رجلاً متنوراً مشهورا بالكرم ، وكان ثرياً جداً وذا شخصية محبوبة ، فلم يتردد نامق كمال ولا ضياء باشا ، وتركا البلاد هاربين الى اوربا ، لملاقاة حاميهما الجديد، ثم انضم اليهما الصحفي المعروف ((علي سعوي))، والكاتب ((إغا افندي)) والتأم شملهم فيما بعد في باريس. وكان علي سعوي قد نشر عدداً من المقالات ينتقد فيها اجراءات الحكومة في جريدة " المخبر" فصدر امر بنفيه الى بلده تسطموني وبعد اقامته في المنفى ، افلح في الفرار ووصل الى اوروبا بسلام.

في سنة ١٨٦٥ اجتمع عدد من الباشوات والمتنورين في مقدمتهم نوري بيك ورشاد باشا، واسسوا جمعية اطلقوا عليها اسم ((العثمانيون الجدد)) بني عثمانلي لر)) ، كان هدفهم اقناع السلطان عبد العزيز باعلان الدستور " مشروطيت" من اجل اصلاح الاوضاع قبل فوات الاوان ، وبذلك تتجنب الامبراطورية العثمانية المصير المظلم الذي ينتظرها لو استمرت البلاد في تقهقرها الى الوراء ، كان النظام الذي التزموه لادارة جمعيتهم شبيهاً بنظام جمعية الكاربوناري الايطالية وغيرها من الجمعيات والمحافل السرية في اوروبا. ظل عدد اعضاء الجمعية يتزايد بعد ذلك الى ان بلغ ٢٤٥ شخصاً وتم انتخاب نوري بيك رئيساً لها.

ثم دخل نامق كمال واصحابه المشار اليهم اعلاه ، الى الجمعية بعد ذلك بفترة . وباشتراك نامق كمال في هذه الجمعية تحددت خطوط حياته، فقد تبين له هدف حياته وهو المطالبة بالحرية للشعب ، وبالدستور لحماية تلك الحرية، ولم يتوقف كفاحه في هذا الميدان حتى انطفأت شموع حياته.

ان الرسالة، التي وجهها مصطفى فاضل باشا الى السلطان عبد العزيز، ونشرت في باريس بالفرنسية ثم ترجمت الى التركية ، ووزعت على شكل مناشير في نواحي استانبول اعتبرت البيان الاول لجمعية " العثمانيون الجدد" ، فكانت كالملح الذي يذر على الجراح، في اثارة سخط الجماهير وغضبها ضد السلطان عبد العزيز. في هذه الاثناء تقرر ان يلبي عبد العزيز دعوة نابليون الثالث لزيارة باريس ، فكانت هذه الزيارة السياحية نذير شؤم للمقيمين في باريس من اعضاء جمعية " العثمانيون الجدد"اذ اقتنع لويس نابليون بوجهة نظر السلطان في فائدة خروج " المشاغبين" من فرنسا. على ان المسألة لم تتوقف عند هذا الحد، بل جاءت الضربة الاقوى حين عادت المياه الى مجاريها بين السلطان ومصطفى فاضل باشا، فقد سويت الخلافات بينهما في اثناء تلك الزيارة ، وعاد الامير المصري الى استانبول ، واستعاد مركزه في الدولة. وبذلك فقد المهاجرون نصيرهم القوي في اوروبا ، ورحلوا الى لندن. في السنة ذاتها اصدر علي سعوي جريدة " المخبر" لتكون لسان حال جمعية العثمانين الجدد، لكن الصحيفة سرعان ما انحرفت عن خط الجمعية مما ادى الى حدوث انشقاق ، وانفصل نامق كمال عن جماعة علي سعوي. وشرع نامق كمال بتحرير جريدة" حريت" منذ سنة ١٨٦٨ وواصل العمل فيها حتى العدد ٦٣ وكان يشاركه التحرير صديقه ضياء باشا. لقد عدت المقالات التي كتباها في هذه الجريدة افضل ما نشرا في ميدان السياسة . لكن نامق كمال ترك الجريدة بعد وقوع خلاف بينه وبين صديقه حول الخط السياسي الذي ينبغي للجريدة ان تتخذه ، في ذلك الوقت كان مصطفى فاضل باشا يراسل اعضاء الجمعية موجهاً انظارهم الى ضرورة تخفيف جريدة " حريت" لهجتها ضد الحكومة العثمانية عموماً ، وضد الوزير الكبير علي باشا خصوصاً ، في حين كان هم ضياء باشا مهاجمة علي باشا في كل مناسبة ، لكنه لم يكن منصفاً هذا، وكانت مشاعره ضد الوزير شخصية على الاغلب ، وقد ندم عليها فيما بعد.

لم تعر الحكومة البريطانية أي اهتمام لمطاليب الدولة العثمانية بملاحقة اعضاء جمعية العثمانيون الجدد" واغلاق صحيفتهم " حريت " لكن الحل جاء من " علي سعوي" دون ان يريد، حين نشرت له الجريدة مقالة حادة النبرة تحرض على قتل الوزير الاكبر علي باشا . فوراً استدعي محرر الجريدة ضياء باشا للتحقيق في لندن، واوقف فترة. بعد ذلك لم يجد بداً من مغادرة الاراضي البريطانية ، فاختار جنيف في سويسرا مقراً له هذه المرة ، وعاود اصدار جريدة " حريت" التي استمرت حتى ٢٢ حزيران ١٨٧٠ حين اصدرت عددها رقم ١٠٠.

بعد عودة مصطفى فاضل باشا الى استانبول قطع الاعانات عن جريدة " حريت " ، لكنه واصل ارسال الرواتب الشهرية لاصدقائه في اوروبا . كان لنامق كمال مورد اخر للعيش في اوروبا ضمن له مواصلة الكفاح في الطريق الذي اختاره، اذ كان ولي العهد مراد افندي قد خصص له ولعائلته اعانات محددة تضمن لهم حياة الكرامة في ظروفهم الصعبة تلك . وفي سنة ١٨٧٠ كتب مصطفى فاضل باشا الى نامق كمال ينصحه بالعودة الى استانبول، فمانع في بادئ الامر لانه كان مشغولاً بالاشراف على طبع القرآن الكريم في لندن، ثم انه عاد الى الوطن فلم يجد عملاً . في تشرين الثاني سنة ١٨٧٠ صدر العدد الاول من جريدة المزاح:" ديوجين" التي كان يشرف على تحريرها الكاتب المسرحي "تيودوركسب" ففتحت صدرها لمقالات نامق كمال الاجتماعية النقدية .

في سنة ١٨٧١ توفي علي باشا ، فتم تعيين محمود نديم باشا صدراً اعظم خلفاً له ، وكان في ذلك بداية الكوارث الحقيقية التي ستحيق بالامبراطورية العثمانية، لأن هذا الرجل لم يمتلك اية كفاءة تؤهله لمنصب رئيس الوزراء .

كان السلطان عبد العزيز ، شأنه شأن اسلافه من السلاطين العثمانيين نزاعاً الى الحكم الاستبدادي الكيفي، ولم يتحمل تطبيق بنود" التنظيمات" لاسيما ما يتعلق منها بمراقبة الشعب لاجراءات الحكومة ، ولذلك بقيت وعوده باحترام التنظيمات ، حبراً على ورق ، ثم انه تمادى في تدخله بشؤون الحكومة في كل صغيرة وكبيرة ، وتضخمت نفقات السراي حتى شكلت خمس ميزانية الدولة.

من ناحية اخرى اشتدت في هذا الوقت حركات الاستقلال عن جسم الامبراطورية العثمانية، وتوالت الثورات الداخلية على السلطة، في حين لم يكن في خزانة الدولة ما يعين على قمع تلك الحركات ، وظلت الديون الخارجية تتضاعف وتتضاعف معها الفوائد عليها.

من اهم الاحداث التي وقعت في مصر في اثناء المرحلة الاولى من عهد عبد العزيز، افتتاح قناة السويس سنة ١٨٦٩ في عهد الخديوي اسماعيل باشا، كان ذلك يوماً مشهوداً في تاريخ مصر الحديثة ومن اهم ضيوف الشرف الذين رعوا الاحتفال الامبراطورة اوجيني، زوجة لويس نابليون. وفي الاحتفال عزف الموسيقار" فردى" اوبرا " عايدة" الشهيرة التي ألفها خصيصا للمناسبة السعيدة. كانت اوجيني " بنت خال فردناند دى ليسبس، الذي حصل على حق شق قناة السويس. وقبل وصولها الى مصر ألمت باستانبول ، رداً على زيارة عبد العزيز لبلادها.

بعد وفاة علي باشا بمرض السل عام ١٨٧١ تنافس على رئاسة الوزارة محمود نديم باشا والمصلح الشهير مدحت باشا . كان هذان الوزيران متناقضين في شخصيتهما وميولهما واهدافهما على عكس الحال فيما كان بين سلفيهما : علي باشا وفؤاد باشا فقد كان هذان متقاربين متكاملين في سياستهما واهدافهما وتجمع بينهما صداقة متينة على الرغم من تنافسهما في الوظيفة. عرف عن محمود نديم باشا ، الانتهازية وطغيان روح الانانية على كل تصرفاته. ولم يهتم بشيء قدر اهتمامه بتقوية مركزه ونفوذه في السراي الامبراطوري. ثم انه اصبح لعبة بيد سفير روسيا الذي كان يسعى سعياً حثيثاً للقضاء على الامبرطورية العثمانية ، عدوة بلاده الاولى . لم يجد محمود نديم باشا وسيلة يتقرب بها الى عبد العزيز افضل من تشجيعه على التمادي في نزواته الشخصية من دون النظر الى ما قد يجره ذلك من نتائج وخيمة على البلاد. ولم يحاول يوما منعه من التدخل السافر في شؤون الوزارة .

ومن اجل توفير المال للسلطان الاحمق اتبع محمود نديم كل وسيلة مشروعة كانت او غير مشروعة ، وفي نهاية الامر اضطرت الى اعلان افلاسها.

على العكس من محمود نديم ، كان مدحت باشا رجلاً ملتهب الحماس لخدمة بلاده.

شديد الحرص على بناء مستقبلها، كان من المؤمنين بمبادئ الثورة الفرنسية، ومتحمساً لتحقيق الاصلاحات وكان شديد النفور من نزوع سلاطين بني عثمان الى الاستئثار بالسلطة ، وعدم الايمان بالشعب كان متشعباً بمبدأ حق الشعب في حكم نفسه ، وفي حقه لأن ينتقد السلطان ويمنعه من الانحراف عن خط المصلحة العامة . واشد ما اهتم به تشكيل المجلس النيابي واعلان الدستور .

ولذلك عقد مدحت باشا اوثق الصلات بالعثمانيين الجدد حتى اصبحوا يعدونه الاب الروحي لجمعيتهم . ومن هنا نشأ خلاف جذري بين عبد العزيز ووزيره محمود نديم وانصارهما من الاستغلاليين من جهة وبين مدحت باشا ومؤيدي الدستور والمتنورين جميعاً من جهة اخرى.

كان نجم مدحت باشا قد بدأ بالتألق بشكل خاص بعد اصلاحاته الكبرى في بغداد ، واثناء ولايته القصيرة لها بين ١٨٦٩ . ١٨٧١، لكن محمود نديم باشا ما كاد يضع قدمه على عتبة الباب العالي حتى شرع بوضع العراقيل في طريق مدحت باشا فمضى يطالبه بالحاح بارسال الاموال ، مرة بعد اخرى ، من بغداد الى استانبول ، ليمنعه من تنفيذ اصلاحاته . ولما نفد صبر مدحت باشا قدم استقالته وعاد الى استانبول. ومن اجل ابعاد مدحت باشا عن استانبول صدر الامر بتعيينه واليا على ((أدرنة)) . ولما توجه مدحت باشا الى القصر لتقديم الشكر الى السلطان بحسب التقاليد المتبعة بادره عبد العزيز قائلا: .

. تألمت كثيراً لا ستقالتك من ولاية بغداد، لكني إذ عرفت اسبابها الحقيقية ندمت على موافقتي على القرار.

أجاب مدحت باشا:.

ـ يا جلالة الملك ، ليس من الممكن ان يشترك محمود نديم باشا والعبد الماثل امامكم في حكم البلاد سوية.

في اليوم التالي " ٣١ تموز ١٨٧٢" صدر الامر بتعيين مدحت باشا صدرا اعظم لكن هذا التكريم الجديد لم يكن له تأثير في نفس مدحت باشا ، فلقد واصل ابداء ارائه بصراحة ضد كبار المسؤولين . من ذلك ان محمود نديم باشا كان قد طمأن السلطان بأن الميزانية في حالة سليمة والخزانة تسدد النفقات تماماً ولا داعي للقلق على اقتصاد البلاد ، اما مدحت باشا فقد رفع صوته معترضاً واكد افلاس الخزانة، وكذب محمود نديم باشا .

هذه الانباء لم ترض عبد العزيز بل اثارت انزعاجه لانه كان محتاجاً الى المال ، وليس الى من يطالبه بالاقتصاد، وفي ١٩ تشرين الاول ١٨٧٢ عزل مدحت باشا من رئاسة الوزارة بعد شهرين فقط من توليه لها. بعد ذلك ظل يتنقل بين وظائف اقل اهمية حتى عام ١٨٧٥.

هكذا تبين لمدحت باشا وانصاره من العثمانيين الجدد وغيرهم من المتنورين ان لا امل في توقع أي خير من عبد العزيز ، وان الحل الاوحد يتمثل في خلعه . في اول شهر مايس ١٨٧٥ جرى الاتفاق بين رئيس وزراء تلك الفترة رشدو باشا ، ومدحت باشا " الذي كان وزيرا للدولة" ، وشيخ الاسلام خيرالله ، افندى على اعلان خلع السلطان . وطبقت الخطة بنجاح تام في ٣٠ ايار ، وارتقى ولي العهد مراد الخامس العرش وفرضت الاقامة الجبرية على عبد العزيز في احد قصوره باستانبول. كان السلطان كثير الوسواس بطبعه والظاهر انه اصيب بحالة انهيار عصبي، بعد خلعه فبدأ يردد انه مهدد بالقتل وفي ٤ حزيران ١٨٧٦ حصل على مقص وقطع به وريد ذراعه وتوفي بهذه الصورة المفجعة .

اثارت الحادثة الاليمة بلبلة شديدة بين اوساط الناس ، فهم بين مصدق ومكذب ، انصاره يؤكدون ان السلطان مات مقتولاً واصابع الاتهام موجهة مباشرة الى مدحت باشا، والحكومة تؤكد الانتحار بدليل شهادة عشرين طبيبا لم يجدوا أي دليل على وجود جريمة قتل ، لكن اعداء مدحت باشا الاقوياء وفيهم كل اعداء الاصلاح ، وكل المتضررين من التنظيمات والدستور كان همهم الاوحد التخلص من مدحت باشا ، اقوى المصلحين واحبهم الى الجماهير الشعبية ، ولايجوز تفويت مثل هذه الفرصة الذهبية . والواقع ان رجلاً له مثل اخلاص مدحت باشا للمبادئ النبيلة وحماسة الملتهب لحماية مصالح الشعب لايمكن ان يفكر بتنفيذ مثل تلك الجريمة الجبانة لا سيما بعد نجاح عملية الخلع، نجاحاً تاما، ومن دون اية اخطار.

ثم ان ولي العهد مراد الخامس كان يؤيد اعداء عبد العزيز من وقت طويل ، على ما رأينا في هذه الدراسة ، فلم يكن ثمة حاجة لتنفيذ عملية اغتيال بشعة مثل تلك التي وقعت في تلك الايام العصيبة انهمك مدحت باشا باعداد نص الدستور الذي ستّحكم به البلاد من دون ان يستطيع السلطان تجاوز بنوده . وكان نامق كمال وصديقه الشاعر الصحفي ضياء باشا يعاونان مدحت باشا في صياغة النص وفي يوم ٢٣ كانون الاول ١٨٧٦ تم اعلان الدستور في احتفال رسمي كبير. على ان الامور شرعت تتخذ مجرى جديداً. فقد بدت على السلطان مراد الخامس امارات الجنون "الجنون متوارث في عائلة بني عثمان" ، وظهر خلل اكيد في تصرفاته ، فكان على مدحت باشا ان يعيد التفكير هو واصحابه في الاحداث لكن ولي العهد عبد الحميد الثاني ابدى كامل استعداده للتعاون مع الاحرار والمتنورين وانصار الدستور وتعهد باغلظ الايمان ان يلتزم بالدستور لانه مؤمن به مثلهم ، على حد قوله وفي شهر تشرين الاول من عام ١٨٧٧ تم تنصيب عبد الحميد على العرش، وكان مدحت باشا يؤمئذ رئيس وزرائه لكن عبد الحميد" شأنه شأن كل السلاطين العثمانيين " كان بطبعه غدراً لايفهم للعهود والمواثيق معنى ، فما كاد يستقر على كرسي العرش، حتى نقض الوعود كلها، اول عمل بدأ به ، هو ابعاد انصار الدستور ع